مع المخطوطات في السعودية شرقًا وغربًا

أ. عصام محمد الشنطي
معهد المخطوطات العربية - جامعة الدول العربية - القاهرة

منذ أن تأسس معهد المخطوطات العربية في عام ١٩٤٦م (١٣٦٦هـ) في ظل الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، والعلاقة بينه وبين المملكة العربية السعودية علاقة متينة وحميمية، في محيط خدمة المخطوطات المودع فيها مختلف العلوم التي أبدع فيها العرب والمسلمون، إبان الحضارة العربية، بهدف إتاحتها للعلماء والباحثين، ومراكز البحوث على حد سواء.

وبقيت هذه العلاقة على متانتها وحميميتها منذ أن انتقلت تبعية المعهد إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليسكو) في عام ١٩٧٢م (١٣٩٢هـ).

ويُذكر أن المملكة العربية السعودية من الأعضاء المؤسسين لجامعة الدول العربية، وكذلك للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم؛ ومن ثم فالمملكة شريكة في المعهد المنبثق عن هاتين المؤسستين للتعاون العربي، وكانت المملكة حريصة على تسديد نصيبها في ميزانيتي المؤسستين،

ولم يصل إلى سمعي، طيلة خدمتي بالمعهد التي بلغت في العهدين نحو أربعين عامًا، عن تقاعسها في أداء هذا النصيب.

لم يكن المعهد يألو جهدًا في الكشف عن مخطوطات المملكة العربية السعودية والتعريف بها، فكان ينشر في فهارس منفردة، أو على صفحات مجلته - الأكاديمية المحكمة، وذائعة الصيت في ميدان تخصصها، في الأقطار العربية والإسلامية، ودوائر الاستشراق - البحوث والمقالات الموصلة بتعريف المخطوطات وفهرستها في مكتبات خاصة في ربوع المملكة، على النحو الذي سنبينه.

وكذلك، فإن المعهد كان يستجيب، في ترحاب، لما تطلبه الجامعات، أو المراكز السعودية من تصوير مخطوطاته التي جمعها بالمئات، بل الألوف، من مختلف أنحاء العالم الذي يحتضن مخطوطات عربية، بهدف إثراء هذه المؤسسات السعودية بالمصورات، خصوصًا في أوائل تأسيسها، اهتمامًا منها بالبدء في نشر النصوص التراثية المختلفة محققة ومدروسة.

وإني لأذكر على سبيل المثال أن المعهد في أوائل النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي الميلادي (النصف الثاني من تسعينيات القرن الهجري الماضي)، قد زود مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، الذي أنشئ سنة ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) في كنف جامعة أم القرى بمكة المكرمة، بعشرات - بل المئات - من المصورات التي انتقاها المركز من فهارس المعهد وكوّن بها الحصيلة الأولى المبكرة لثروته.

التعريف بالمخطوطات:

من أهداف معهد المخطوطات العربية الكشف عن المخطوطات العربية، الموزعة في أنحاء شتى من العالم، في مكتبات عامة أو خاصة، بهدف التعريف بها وتوصيفها، لانتفاع الباحثين بها إذا ما شاع نقاط التحقيق المنهجي بين ظهرانيهم.

وأول ما أذكره من الاهتمام بفهرسة مخطوطات المملكة، إصدار المعهد فهرسًا مستقلاً في توصيف مخطوطات (مكتبة عبدالله بن العباس بمدينة الطائف)، صنعه عثمان محمود حسين، الأستاذ بالكلية المتوسطة بهذه المدينة(١).

وقد وصف فيه مخطوطات المكتبة التي تزيد على ٤٥٠ عنوانًا، ورتبها على الحروف الهجائية، داخل تقسيمات العلوم، وجاء الفهرس في ٤٤٥ صفحة من القطع المتوسط.

وثاني هذه الأعمال فهرس مخطوطات مكتبة ابن بدران الخاصة، في الرياض، الذي أعده محمد إبراهيم السمك، وابن بدران هذا هو الشيخ عبدالقادر بن أحمد بن مصطفى الدوخي الدمشقي، المعروف بـ (ابن بدران)، المتوفى عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م).

وقد انتقلت ملكية هذه المكتبة إلى الشيخ عبدالغني الدر الدومي، المعروف بـ ابن الدر، ثم تناثرت بعد ذلك، فذهب

---

(١) منشورات معهد المخطوطات العربية، الطبعة الأولى، الكويت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

جزء منها إلى المكتبة الظاهرية بدمشق، وجزء تملكه الشيخ شامل يونس شاهين، الذي ضم واحدًا وثلاثين مخطوطة. والفهرس المنشور(٢) يدور على توصيف هذا القدر المحدود، وقد رتبها مفهرسها على عنواناتها بالحروف الهجائية.

وثالثها فهرس مخطوطات مكتبة القاضي عبدالرحمن علي شيبان الخاصة، في النماص (بالمملكة)، وقد صنعه رياض عبدالحميد مراد، الذي كان يعمل في إدارة التعليم فيها، فقام بفهرسة مخطوطاتها، ورتبها على تصنيف العلوم، وتولى المعهد نشرها(٣).

نمو المخطوطات في الجامعات:

أخذت المخطوطات في المملكة العربية السعودية في الازدياد شيئًا فشيئًا، وأخذ توجه جامعاتها إلى اقتناء المخطوطات بشتى الوسائل، شراءً، أو تصويرًا، وخدمتها خدمة حديثة، وإتاحتها لباحثي الجامعات وغيرهم، جاء هذا ضمن دراسة بعنوان: مجموعات المخطوطات بالجامعات السعودية. والحديث هنا عن جامعة الملك سعود (الرياض)، والجامعة الإسلامية (المدينة)، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (الرياض)، وجامعة أم القرى (مكة)، وجامعة الملك عبدالعزيز (جدة).

---

(٢) في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٣٢، الجزء الثاني، يوليو - ديسمبر ١٩٨٨م، الكويت، ص٢١٣ - ٢٣٩.

(٣) في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٢٧، الجزء الثاني، يوليو - ديسمبر ١٩٨٣م، الكويت، ص٥٩٧ - ٦٠٥.

وقد اهتم المعهد بنشر(٤) هذه الدراسة التي أنجزها علي علوي علوي بافقيه، عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م)، وكانت ضمن الدراسات المقدمة للاجتماع الثاني للهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي، المنبثق عن معهد المخطوطات العربية، والمنعقد في القاهرة في يومي ١٨-١٩/ ١٢/ ١٩٩٧م.

لقد شرعت جامعة الملك سعود بالرياض في بناء مجموعة مخطوطاتها منذ عام ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م)، وأنشأت قسمًا للمخطوطات في العام التالي، ولحقها قسم خاص بالمخطوطات في جامعة الملك عبدالعزيز في جدة عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م)، وبعدها بقليل أنشئ قسم في مكتبة جامعة أم القرى بمكة.

كما عمدت دار الكتب الوطنية بالرياض إلى إنشاء قسم مستقل للمخطوطات عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م)، وأنشئ قسم آخر في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م).

أما الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، فإن قسم المخطوطات فيها تكوّن عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م)، وفي العام نفسه أنشئ قسم المخطوطات في دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، وفي عام ١٣٩٩هـ (١٩٧٨م) اقتنت الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون مجموعة من المخطوطات أضيفت إلى مكتبتها بالرياض.

---

(٤) في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٤١، الجزء الأول، مايو ١٩٩٧م، القاهرة، ص٣١٣ - ٣٢٠.

وواضح من هذه البيانات القيمة أن بداية تسعينيات القرن الهجري المنصرم هي الفترة التي شرعت فيها المكتبات الجامعية والبحثية في توجيه الاهتمام إلى جمع المخطوطات وحفظها، وأن زَخَم اقتناء المخطوطات نما نموًا تصاعديًا منذ عام ٩٦/ ١٣٩٧هـ (٧٦/ ١٩٧٧م)، فقد ارتفع عددها في مكتبات الجامعات الخمس: التي كنا ذكرناها، من ١٤٥٥٨ مخطوطة في العام المذكور إلى ٤٣٠٣٤ مخطوطة أصلية ومصورة؛ إضافة إلى نحو ١٦ ألف مخطوطة مصورة في مكتبة عمادة البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى في عام ١٤٠٠/ ١٤٠١هـ (٧٩/ ١٩٨٠م).

وتكشف هذه الأرقام عن أن جامعة أم القرى لديها عمومًا ٢٧٨٨٤ مخطوطة أصلية ومصورة، ويأتي بعدها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وجامعة الملك سعود، والجامعة الإسلامية، ثم جامعة الملك عبدالعزيز.

وفي عام ١٤١٠هـ (١٩٨٩م) تصدرت الجامعة الإسلامية بالمدينة مقدمة القائمة، تلتها جامعة أم القرى، ثم جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فجامعة الملك سعود، وأخيرًا تأتي جامعة الملك عبدالعزيز.

وإزاء واقع اقتناء المخطوطات في المكتبات العامة في المملكة، وفي ضوء ما ذكرناه، نحس أنها جميعًا وقعت في سباق محمود، وتنافس علمي، نحو اقتناء المخطوطات، سواء كانت أصلية أو مصورة، مما نتج عنه بعض التكرار الذي يفضي إلى ضرورة التنسيق بينها.

بعثات المعهد:

كان المعهد منذ إنشائه حريصًا على زيادة ثروته من مصورات المخطوطات من مكامنها في الأقطار العربية والإسلامية والأجنبية، وذلك بوسيلتين: الأولى بتبادل المصورات، شريطة أن تكون الجهة الأخرى لديها وسائل التصوير المختلفة، والثانية الأقوى في إثراء المعهد، وهي إرساله بعثات اختيار وتصوير إلى أقطار تعرف بمحصول وافر من هذه المخطوطات، وأكثرها نفاسة وندرة. ويكون عمادُ البعثة الأول خبيرًا تراثيًا واحدًا على الأقل للاختيار وتحرير بطاقة لما يختاره ومصورًا واحدًا، في الغالب الأعم، برفقته آلاته ومعداته، للتصوير على ميكروفيلم قياس ٣٥ ملم، وهو النظام المعتمد لدى المعهد منذ إنشائه عام ١٩٤٦م (١٣٦٦هـ)، ومحاولة تحميض الأفلام في المكان نفسه، للاطمئنان إلى نجاح العمل.

وكانت المملكة من أوائل الدول التي حازت على توجه المعهد للانتقاء منها وتصويره. كان ذلك في بعثة أولى وثانية وثالثة. وسنتحدث عن كل منها بشيء من البسط، خصوصًا عند الحديث عن البعثة الثانية، التي أعدها أم البعثات. وهو حديث مفيد عن تطور اقتناء المخطوطات لدى المملكة، في مكتبات عامة وخاصة، بعد إجراء مقارنة قبل نشاط المعهد في بعثاته الثلاث، وفي أثنائها وبعدها، ومن ثم يتكشف الأمر عن التقدم الهائل الذي أحرزته المملكة في العقود الأخيرة - مقارنة بما كانت المخطوطات عليه في أزمان القيام بهذه البعثات المتباعدة.

ونعني بهذا التقدم من حيث ازدياد المراكز والجامعات التي أخذت تعنى بهذه الثروة القومية، سواء باقتناء مخطوطات أصلية، أو مصورات حرصت على جمعها. وكذلك تقدم كبير في عدد المخطوطات التي أصبحت الآن في حوزة تلك المراكز، وفي توفير الإمكانات الفنية المتقدمة لخدمتها من صيانة وترميم، وأجهزة حديثة للتصوير، وتوفير الكوادر المتخصصة والكافية لفهرستها، ومراكز معلومات لخدمة هذه الثروة العربية الإسلامية، وقواعد بيانات لتقديم الخدمة المثلى للباحثين أينما كانوا؛ ومن ثم نرى تقدمًا في أمكنة حيازة هذه المخطوطات، من مبان حديثة مناسبة، ومزودة بالكهرباء ليل نهار، وتوفير ظروف جيدة، وبيئة صالح للحفاظ على هذه المخطوطات، وطريقة حفظها من حيث درجة الحرارة والرطوبة، وتعقيم المخطوطات وأجوائها بصورة متوالية.

البعثة الأولى:

في العادة كان يعد للبعثة قبل قيامها، باتصال المعهد رسميًا بالجهات المختصة في الدول التي يرغب في التصوير منها، والحق أن المملكة كانت من الدول الفاتحة ذراعيها لاستقبال بعثات جامعة الدول العربية، في حين أن بعض الدول كانت تماطل في الموافقة، غير مرحبة بها، وطرح بعض الحجج، كإجراء جرد عام للمخطوطات، أو القيام بصيانة وترميم لها، في تلك المكتبات، وأن الظروف غير مواتية لاستقبالها.

بعد الموافقة تحركت البعثة إلى المملكة وكان المخصص المالي في ميزانية المعهد متواضعًا، فانطبع ذلك على الاقتصار على أمكنة محددة في الحجاز، وعلى المدة التي لم تتجاوز شهرًا ونصف الشهر.

انطلقت البعثة من القاهرة - مقر المعهد - يوم السبت أول شهر يناير (كانون الثاني) من عام ١٩٥٥م (١٣٧٥هـ)، وعادت إليه في ١٥ فبراير (شباط) من العام نفسه. وبدأت بجدة، حيث مكتبة الشيخ محمد نصيف(٥) الخاصة، وهي مكتبة مشهورة حرص على زيارتها بعض أعيان العرب والمستشرقين، ودام عمل البعثة فيها أربعة أيام.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر تواصل الشيخ محمد نصيف بالمستشرقين، ومنهم المستشرق الهولندي كريستيان سنوك هورغرنيه (هرجرونيه) Christian Snouck Hurgronje الذي توفي في منتصف عام ١٩٣٦م (١٣٥٥هـ). وقد زار مكة مسلمًا متسميًا بالحاج عبدالغفار، وأقام بها نحو ستة شهور (١٣٠٢-١٣٠٣هـ/ ١٨٨٤-١٨٨٥م). وعين أستاذًا للعربية في

---

(٥) هو أبو الحسن محمد بن حسين بن عمر بن عبدالله بن نصيف (١٣٠٢ - ١٣٩١هـ/ ١٨٨٥ - ١٩٧١م). عالم جدة في عصره أولع بالعلم والقراءة، واقتنى مكتبة عظيمة، من المطبوعات، والمخطوطات، وعرف بسعة معارفه، وكان بيته ومكتبته ملتقى المشاهير والعلماء، وزاره أمين الريحاني، ومحمد رشيد رضا. وآلت مكتبته - وقفًا - إلى جامعة الملك عبدالعزيز في جدة، سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٦م)، وهي تحتوي على نحو ثمانية آلاف كتاب مطبوع، و٢١٧ مخطوطة. الأعلام، الزركلي، ٦/ ١٠٧ - ١٠٨، ومآل مكتبات علماء المملكة، ص٩٠ - ٩١.

باتافيا – جامعة ليدن، وكان يجيدها إجادة تامة. وانعقد فيما بعد بينه وبين الشيخ محمد نصيف في جدة صلة وثيقة. وكان الشيخ يزوده بالكتب العربية التي تصدر في مكة وجدة والمدينة، يرسلها إليه بوساطة القنصل الهولندي في جدة. وتبادلا الرسائل، منها رسالة بعث بها إلى الشيخ في ديسمبر ١٩٣٤م (١٣٥٣هـ). وكان القنصل يزور الشيخ في منزله (إبريل ١٩٢٧م/ شوال ١٣٤٥هـ).

ومن بحوثه ودراساته في التراث العربي الإسلامي نذكر كتابًا وضعه بعد إقامته بمكة، باللغة الألمانية، في مجلدين، بعنوان: صفحات من تاريخ مكة المكرمة (في القرن التاسع عشر). وقد وضح مادته بخرائط وصور، وأصدره في لاهاي عامي ١٨٨٨-١٨٨٩م. وترجم إلى العربية، في جزءين، صدرا عن دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، عام ١٤١٩هـ (١٩٩٨)(٦).

ويبدو أن مستشرقًا آخر، غير هذا، هو الذي زار الشيخ محمد نصيف في بيته. واطلع على مكتبته، ووصف بيته قائلاً: في باحته شجرة. وواضح أن الشجر في جدة، آنذاك كان عزيزًا نادرًا.

وحين نعود إلى مسار البعثة نجدها قد انتقلت إلى مكتبة الحرم المكي التي تضم نحو ألف مخطوطة غير مفهرسة،

---

(٦) المستشرقين – نجيب العفيفي، ٢/ ٣١٥ – ٣١٦؛ ومقالة د. عباس صالح طاشكندي، علاقة المستشرق هورغرونيه بالملك فيصل بن عبدالعزيز، مجلة الفيصل، العدد ٣٥٧، ص٥٨ – ٦٩؛ ومكة المكرمة في عيون رحالة نصارى، لأغسطس رالي، الترجمة العربية، ص٢٤٥ – ٢٦١؛ ومجلة الحج والعمرة، العدد السادس، سنة ١٤٣٠هـ، ص٥٤ – ٥٧.

ولها سجل قاصر مرتب على أسماء الكتب ومؤلفيها، وقع فيه خلط ووهم؛ فصورت البعثة منها ٢٨ مخطوطة بعد أن قضت فيها نحو ثمانية أيام.

واللافت للنظر أن هذه المكتبة تضم مكتبة خاصة، موقوفة، كانت ملكًا للمرحوم أبي الفيض (أبي الإسعاد) عبدالستار بن عبدالوهاب الدهلوي الهندي(٧)، المتوفى ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، وتعرف بالمكتبة الفيضية، وتبلغ مخطوطاتها نحو خمسمئة، معظمها بخط صاحبها، وبعضها من تأليفه، وخرجت البعثة منها بحصيلة سبع مخطوطات(٨).

أما في المدينة المنورة، فكان التوجه الأول إلى مكتبة مشهورة، هي مكتبة عارف حكمت(٩) التي أنشأها عام ١٢٧٠هـ (١٨٥٣م) وأوقفها على هذه المدينة. وتحتوي على ثلاثة آلاف مجلد، فيها مجاميع كثيرة تحتاج لاستخراج كنوزها إلى وقت كاف. وصورت البعثة السجلات الخمسة التي كتبت بخط اليد، والتي تشير إلى مقتنياتها، وهي وثيقة مهمة، كغيرها من السجلات والدفاتر والبطاقات الخطية التي صورتها بعثات المعهد من مكتبات أخرى، تكشف عن الأيدي

---

(٧) عالم بالتراجم، ترجمته في الأعلام، الزركلي: ٣/ ٣٥٤.

(٨) انظر في: مآل مكتبات علماء المملكة، ص ٤٨ - ٤٩، ٧٢ - ٧٣ حيث ضمت هذه المكتبة بوصية صاحبها إلى مكتبة أخيه عبدالوهاب بن عبدالجبار الدهلوي عام ١٣٥٦هـ، ثم بيعتا إلى مكتبة الحرم المكي سنة ١٣٨٧هـ، وما زالت تعرف فيها بمكتبة آل الدهلوي.

(٩) هو أحمد عارف حكمت، تركي المنشأ، من المناصب التي تولاها قاض في المدينة المنورة، وانتهى شيخًا للإسلام في الآستانة. توفي عام ١٢٧٥هـ (١٨٥٨م). الأعلام، الزركلي، ١/ ١٤١.

الطويلة التي امتدت للمكتبة تأخذ منها كل غال ونفيس: وخاصة أنه أشير في السجل هذا إلى المفقود منها بحرف (م).

وكان شيخ الإسلام قد وضع لها خزائن متقنة، ووضعت كل مخطوطة منها في جراب (غلاف) مناسب بحجمها، وحين تدخلها من الباب الخارجي تجبهك (فسقية) جميلة في باحة المكتبة.

وكانت ظروف التصوير آنذاك صعبة، لفقدان التيار الكهربائي فيها، واستعارت البعثة التيار من مولد الحرم المدني الخاص به، والمجاور للمكتبة لمدة ساعتين في اليوم، فصورت البعثة عنها ٧٥ مخطوطة.

وجاء نصيب المكتبة المحمودية، التي دعيت باسم مؤسسها السلطان العثماني محمود الثاني(١٠) الذي أسسها سنة ١٢٣٧هـ (١٨٢١م)، ويبلغ عدد مخطوطاتها نحو ألفين، وموقعها متصل بالحرم النبوي. ونظرًا للعمارة القائمة بالحرم آنذاك نقلت إلى مكان آخر مرتين، ثم أعيدت للحرم دون ترتيب؛ لذا لم تستطع البعثة الاختيار والتصوير منها.

وقد لاحظت البعثة وجود نحو عشرين مكتبة موقوفة وموزعة على بعض المدارس والربط وطلاب العلم الغرباء. ولم تجد سبيلاً للاطلاع عليها، فضلاً عن تصوير ما ينتقى منها. وأوصت البعثة بلم شعثها وجمعها في مكتبة واحدة، وفهرستها فهرسة منهجية، ومن ثم إتاحتها لطلبة العلم والباحثين أينما كانوا.

---

(١٠) توفي سنة ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م).

وبعد عودة البعثة إلى مقرها نشر المعهد في مجلته(١١) لائحة بأندر ما صورته البعثة وأنفسه، وعددها خمسون مخطوطة.

بعثة البعثات (الثانية):

لما سمحت ميزانية المعهد المادية بالقيام ببعثة في أوائل عام ١٩٧٣م (١٣٩٣هـ)، وكان المعهد قد انتقلت تبعيته حديثًا من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وهي منظمة متخصصة من منظمات الجامعة.

كان عزم المعهد أن يجوب في مخطوطات المملكة شرقًا وغربًا، غير محصور في إقليم أو جهة منها؛ ولهذا السبب سمّيت هذه البعثة المميزة ببعثة البعثات، لأنها بمثابة أم البعثات كلها. وسنتحقق من مشقة تطوافها في أنحاء شتى من المملكة.

وقد توجه العزم إلى المخطوطات في المملكة لسببين: الأول أنه مضى على البعثة الأولى إلى الحجاز نحو عشرين عامًا، والثاني أنه أخذ يصل إلى المعهد أخبار بداية الاهتمام الزائد باقتناء المخطوطات شراءً وتصويرًا.

وقد بادرت بالذهاب إلى الممثل الرسمي السعودي لدى جامعة الدول العربية، وهو بدرجة سفير، وأذكر أن مكتبه كان في السفارة في حي الزمالك المعروف.

---

(١١) المجلد الأول، الجزء الأول، القاهرة، مايو ١٩٥٥م، ص١٥٣ - ١٥٦.

وكنت في حماسة بالغة، وخالي الذهن من احتمال وجود عوائق طارئة تستدعي تأجيل قيام البعثة. ولما تمت المقابلة، وكان الترحيب طابعها الأول، وإذا بسيادة السفير يقول: إن موسم الحج على الأبواب، ولا أنصح بالذهاب في هذا الأوان؛ لأن البعثة لن تلقى من يستقبلها ويتعاون معها البتة. فالمملكة حينئذٍ مستنفرة بكامل طاقاتها، تستقبل هذه الألوف المؤلفة الوافدةَ إلى المملكة بنية الحج، ويظل الاستنفار قائمًا إلى أن يتم الموسم بنجاح.

وفي ثنايا الحديث دخل علينا ساقي القهوة، وقد كنت لا أقبل على احتسائها، لأن القهوة المعروفة في بلادنا مصر والشام، والتي تسمى (القهوة التركية) مذاقها عندي غير محبب، ولونها أسود قاتم، وذرات القهوة تسبح في كل مكان من الفنجان. ولحيائي تناولت الفنجان على مضض، ففوجئت أن القهوة غير القهوة، ونظرت فيها وإذا بها صفراء شقراء تسر الناظرين، صافية لا شائبة فيها، وتقبل على مذاقها الذي يشارك فيه مع البن (حب الهال) مشاركة فاعلة، وطلبت الفنجان الثاني، ولولا الحياء لاستزدت منها. ومنذ ذلك اليوم وأنا أقبل على تلك القهوة السعودية، متقنة الصنع، المحببة للنفس.

وضربنا ميعادًا بعد انقضاء موسم الحج، لنحصل على التأشيرة اللازمة لدخول البلاد، وسافرت البعثة يوم السبت العاشر من فبراير ١٩٧٣م (١٧ محرم ١٣٩٣هـ)، وعادت إلى مقرها يوم ٢٦ من مايو من العام نفسه (٢٣ ربيع الثاني ١٣٩٣هـ)، وبهذا أكملت البعثة مدة ثلاثة شهور ونصف الشهر.

وكان وصول البعثة إلى مطار الرياض ليلاً، ولم تجد أحدًا من الهيئة المختصة في استقبالها، فاحتجزت سلطات الجمارك أجهزة التصوير ومعداته لديها.

وفي صباح اليوم التالي حصلت على مذكرة رسمية من السلطات السعودية لإطلاقها، وأسرعت بها إلى المطار، وطلب مني تعبئة نموذج، أذكر أنه مؤلف من أربع صفحات من القطع الكبير، وفيه من التفصيلات ما فيه، ولما تم ذلك بعد عناء، نقلت المعدات كافة إلى الفندق الذي أوينا إليه.

بين يدي جلالة الملك:

وتفضل ملك البلاد فيصل بن عبدالعزيز آل سعود باستقبال البعثة، على ما أذكر يوم الأربعاء من الأسبوع الأول لوصولها، وذلك في مقر رئاسة الوزراء الذي يقابل فيه الوفود الوافدة من كل أسبوع. والحق أن الفضل يعود إلى الأديب المعروف عبدالعزيز بن أحمد الرفاعي(١٢)، الذي مهد هذا اللقاء للبعثة.

---

(١٢) كان موسوعة فكر وأدب. وأديبًا وشاعرًا وصحفيًا، ورائدًا من رواد الثقافة بالمملكة. نشأ في مكة وتعلم فيها. وكانت له ندوة أسبوعية (الخميسية) في منزله في الرياض. أنشأ دار الرفاعي للنشر والطبع. وكان للتراث عنده منزلة عالية، وحقق بالاشتراك كتاب: إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام للشهروالي. واختير عضوًا في مجمع اللغة العربية بمصر وسورية، وعضوًا بمجلس الشورى السعودي، وعمل بالديوان الملكي مستشارًا. توفي في جدة عام١٤١٤هـ (١٩٩٣م) عن عمر يناهز السبعين، ترجمته في: التذييل والاستدراك على معجم المؤلفين، أحمد العلاونة. دار المنارة، جدة، العدد الثاني. صفر ١٤٣٠هـ، ص١٠ - ١١.

ورحب جلالة الملك بأعضاء بعثة جامعة الدول العربية، كأنه يتذكر تلك المدة التي كان يشارك فيها الجامعة في اجتماعاتها ومؤتمراتها حيث كان وزيرًا للشؤون الخارجية للمملكة، وأقر من حوله في مجلسه أن يعمم على المملكة الترحيب بالبعثة، وتقديم العون والمساعدة لإنجاح مهمتها. وهذه هي الفائدة الأولى.

وأذكر أنه حين سمح لنا بالدخول، وجلسنا عن يمينه وشماله. كان هناك في القاعة الواسعة وفد من عدد وافر جلوسًا أمامه، لم تنته زيارتهم بعد. وأشار جلالته لنا بالبقاء، وتقدم أحدهم وألقى قصيدة في مديحه. ولما انتهى شكره عليها، وأبدى بصوته الهادئ حول القصيدة الملقاة ملاحظتين، الأولى بقوله: إنني خادم الحرمين، ولست سيد الحرمين.

والثانية قوله: لا أستطيع أن أقدم لك من الدولة بدرة من المال على القصيدة سوى الشكر، فالمال الآن يضبطه ميزانية محددة المعالم، مذكور فيها أوجه صرفه. والثالثة ما ختم به المقابلة بما فهمنا منه أنه وفد من منطقة زراعية، كانوا قد حصلوا على قرض لحفر آبار مياه لسقاية زروعهم، وأتوا الآن طامعين في الحصول على إعفائهم من هذه القروض. فأجابهم بنبرة هادئة أنه سأل عن ظروفهم فوجد مشروعاتهم الزراعية ناجحة من جراء هذه القروض، وينبغي - والحال كذلك - أداء الأمانة لأصحابها، حتى تستطيع الدولة أن تعيد التجربة مع آخرين بما فيه نفع البلاد.

وما كاد الوفد الزراعي يخرج، ويكرر جلالته الترحيب بجامعة الدول العربية، حتى جاء من يهمس في أذنه، فسمعناه يقول: أدخلهم الآن. فدخل على ما أظن ثلاثة أشخاص من ألمانيا الغربية، يتقدمهم رئيس الوفد، وبجانبه شاب مترجم، والجميع وقوف أمامه. وتبين لنا من الحديث أنه وفد من بلدية شتوتجارت، كانوا قد دُعوا من بلدية الرياض، لزيارة البلاد، ردًا على زيارة وفد سعودي ذهب لبلادهم بدعوة من بلدية شتوتجارت نفسها.

وبعد أن شكر رئيس الوفد جلالة الملك على كريم الضيافة، وأشاد بتقدم البلاد في مجالات مختلفة، أوضح الهدف من تبادل الوفود، وهو الرغبة في عودة العلاقة السياسية مع ألمانيا. وكان جلالة الملك هو الذي أمر بقطعها عقب قرار حكومتهم بدفع أموال طائلة لإسرائيل تعويضًا لما جرى لليهود في بلادهم. وهي مبالغ دعمت إسرائيل دعمًا قويًا، وضخت في دمائها مزيدًا من الاعتداءات والاستقواء على العرب والمسلمين عامة، والفلسطينيين خاصة.

ورد عليهم جلالته بالشكر على الشكر. وبوضوح - ونحن جلوس نسمع، وهم وقوف أمامه في عجلة من أمرهم - يقول: إن العلاقة لا يمكن أن تعود إلا بقطع علاقتكم بإسرائيل. وفارق الوفد مسرعًا إلى مطار الرياض؛ لأن الطائرة التي تقلهم قاربت على الإقلاع، بعد أن قدم رئيسهم هدية تناولها جلالة الملك وأعطاها لأحد يقف قريبًا من مجلسه.

هذه الفوائد الجمة من اللقاء المبارك، وهذه الكلمات التي ما زالت ترن في أذني، كان فاتحة خير على البعثة، رفعت المعنويات، وفتحت الأبواب الموصدة أمامها.

مسار البعثة:

قلنا إن المدة التي أقامتها البعثة في البلاد بلغت ثلاثة شهور ونصف الشهر، لذا أمكن أن نجوب المملكة بجهاتها المختلفة، شرقًا ووسطًا وغربًا.

ولو وضعنا خط سير للبعثة من البداية إلى النهاية، عبر المدن والقرى التي طرقناها بالتتابع الزمني، والتي كانت محطات للاطلاع على مخطوطاتها تمهيدًا للانتقاء والتصوير، لقلنا:

القاهرة - الرياض - الأحساء (المبرز) - القصيم (بريدة وعنيزة) - المدينة المنورة - مكة المكرمة - جدة - القاهرة.

وفي الرياض شرعنا في العمل في المكتبة العامة السعودية، التابعة لدار الإفتاء وهي في ساحة دخنة، وتضم هذه المكتبة نحو ٦٥٠ مخطوطة، بينها عدد كبير من المصورات، ولها سجل خطي لمحتوياتها، قاصر التوصيف، ولم يصدر عنها فهارس مطبوعة، واخترنا منها ١٨ مخطوطة صورناها بعد أن أنجزنا لكل منها بطاقة تصور معها.

وثنينا بمكتبة جامعة الرياض (جامعة الملك سعود حاليًا) - قسم المخطوطات - الذي يضم نحو خمسة آلاف مخطوطة أصلية ومصورة، جمعت إهداءً وشراءً وتصويرًا، ولها فهرس

طبع بالآلة الكاتبة. ولم نجده في المكتبة متاحًا للاختيار منه، وكذلك فإن معظمها - حسب ما قال المسؤولان بالقسم - لدى المجلد، فكان التصوير منها قاصرًا على ١٥ مخطوطة.

وثالث المكتبات مكتبة الشيخ محمد بن عبدالرحمن العبيكان الخاصة، الذي كان وزيرًا مفوضًا للمملكة في اليمن، ثم سفيرًا في السودان(١٣). وبلغ عدد ما جمعه شراءً ٢٢٧ مخطوطة، مودعة في خزائن متقنة، وطبع(١٤) لها فهرس على منهجية حديثة، وقد صورنا منها ١٤ مخطوطة.

ورابع هذه المكتبات مكتبة سمو الأمير عبدالله بن عبدالرحمن آل سعود(١٥) الخاصة، المحتوية على ١١ مخطوطة، اخترنا منها سبعًا صورناها.

وبالمناسبة نما إلى علمي أن مكتبة على الجانب الآخر من ساحة دخنة، تدعى مكتبة ابن تيمية، فذهبت إليها بعد انتهاء العمل، عصرًا، مقدرًا احتمال وجود مخطوطات فيها.

---

(١٣) توفي ١٤١٣هـ (١٩٩٣م)، وآلت مكتبته إهداءً إلى جامعة الملك سعود بالرياض، وحفظت بجوار مكتبة الزركلي. انظر مآل مكتبات علماء المملكة، ص٩٦ - ٩٧.

(١٤) سنة ١٤٠٤هـ.

(١٥) عالم آل سعود وأديبهم. كان كبير مستشاري أخيه الملك عبدالعزيز، ومستشارًا متميزًا لدى الملك فيصل، أهديت مكتبته من المطبوعات والمخطوطات إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، دعا البعثة إلى جلسته مساءً، وأذكر أنه أبدى رأيه في طه حسين والعقاد، فدل على أنه قارئ متميز، ومثقف متمكن، توفي عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م)، انظر: مآل مكتبات علماء المملكة، ص٥٩ - ٦٠.

فتلقاني القيم مرحبًا، والمكتبة تملأ الجدران إلى السقف، كلها من المطبوعات، والمترددون عليها من تلاميذ المدارس الدينية.

بعد ذلك شددنا الرحال إلى الأحساء، قاصدين مكتبة بعينها، سمعنا عن شهرتها، وهي مكتبة الشيخ محمد بن عبدالله آل عبدالقادر الأنصاري(١٦) الخاصة، في قرية المبرز، القريبة من (الهفوف) عاصمة الأحساء، وقيل لنا في الرياض قبل السفر إليها إن جامعة الرياض حاولت شراءها أو تصويرها، فلم تفلح.

كان تقييم ولي الأمر لمقدمنا - بعد وفاة صاحبها - طيبًا، بعد أن تفهم نشأة معهد المخطوطات العربية، وأهدافه، في ظل جامعة الدول العربية، فرحب وفتح المكتبة للبعثة التي وجدنا فيها نحو ١٥٠ مخطوطة، غير مفهرسة، ولا مصففة، اخترنا منها ٢٧ وصورناها، وكانت هذه النتيجة، في هذا الوقت المبكر فخرًا للبعثة، ونصرًا مؤزرًا لها. وآلت بعد حين، إلى جامعة الملك فيصل بالأحساء، ويذكر أن دارة الملك عبدالعزيز فيما بعد قامت بتعقيمها وترميمها وفهرستها(١٧).

وتحركت البعثة عبر الرياض إلى منطقة القصيم، وبدأنا العمل في بريدة، عاصمة المنطقة، ودخلنا فيها مكتبة بريدة

---

(١٦) كان قاضيًا ومؤرخًا، تولى القضاء في المبرز زمنًا طويلاً، توفي عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

(١٧) مآل مكتبات علماء المملكة، ص١٠٢.

العلمية العامة، واستنطقنا قوائمها واخترنا أربع مخطوطات من بين ٣٥ مخطوطة، هي كل مقتنياتها.

والتقت البعثة برئيس محاكم القصيم الشيخ صالح بن أحمد الخريصي، وهو رجل فاضل، وأطلعنا على مخطوطاته الخاصة التي بلغ عددها ١٢ مخطوطًا، اخترنا منها مخطوطتين فحسب، صورناهما.

وأذكر أنه تقديرًا لفضل هذا الرجل وعلمه، رأينا أن نمر بمنزله لوداعه حين انتهينا من العمل في بريدة وعنيزة، والسيارة في صباح ذاك اليوم على الباب، فخرج إلينا مودعًا وداعيًا لنا بالتوفيق.

والتقينا أيضًا بالشيخ عبدالله الإبراهيم آل سليم، من كبار رجال التعليم في بريدة، وأطلعنا على تسع مخطوطات في مكتبته الخاصة، اخترنا منها أربعًا صورناها.

وتحركت البعثة إلى مدينة عنيزة، المجاورة لبريدة، والمعروفة قديمًا باهتمامها بالتراث العربي الإسلامي، ودخلنا مكتبة عنيزة العلمية، الملحقة بالجامع الكبير فيها ووجدنا نحو ٨٥ مخطوطة محفوظة في خزانة دون ترتيب، ولا فهرسة، ولا تصنيف. واخترنا منها عشر مخطوطات، صورناها.

وجاء دور المكتبة العلمية الصالحية، الملحقة بمسجد أم خمار في عنيزة، والتي تضم ٦٠ مخطوطة، معظمها متأخر النساخة، ووقع الاختيار منها على مخطوطة واحدة، صورناها.

وقابلت البعثة من علماء المنطقة وفضلائها الشيخ سليمان بن صالح بن حمد بن بسام، وأذكر أن منزله كان في أكناف عنيزة، في داخل مزرعة له، وعرض علينا مخطوطات، وهي غير مفهرسة، اخترنا منها ١٩ مخطوطة، صورناها.

أما الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز الزامل، فكان يملك عشر مخطوطات، اخترنا منها مخطوطة واحدة، صورناها.

وإن نسيت لا أنسى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، إمام الجامع الكبير، والمدرس بمعهد عنيزة العلمي(١٨)، وقد كرس نفسه الخيرة لخدمة أهداف البعثة، وتيسير أعمالها في عنيزة، وله عشر مخطوطات خاصة، اخترنا منها مخطوطة واحدة، صورناها.

وقبل أن نغادر القصيم، أذكر وقد حل فصل الربيع، وكنا نمشي عصر يوم في طريق الإذاعة، بأطراف بريدة، وكان الهواء نقيًا، وشممت رائحة ذكية في هذا البر الواسع، فتذكرت بيت الشعر الذي نحفظه من أيام الشباب الأولى:

تزود من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

والعرار: عشب بسيط، له رائحة طيبة.

---

(١٨) من فقهاء عصره وفضلائهم، توفي عام ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م. مآل المكتبات علماء المملكة، ص٩٥ - ٩٦.

وشدت البعثة رحالها إلى المدينة المنورة حيث ظفرت بمكتبات عامة وخاصة، فيها نفائس من كتب التراث ونوادره.

وقبل أن نشرع في العمل، شرفت البعثة بلقاء أميرها عبدالمحسن بن عبدالعزيز الذي رحب بالبعثة وأمر بتسهيل مهمتها(١٩).

وبدأنا العمل في مكتبة عارف حكمت التابعة لوزارة الحج والأوقاف، وقد احتجنا لدخولها والتصوير منها إلى موافقة مسؤول الأوقاف بالمدينة، وهو الفاضل السيد حبيب، الذي رحب بالبعثة، وأذن لها بالعمل في مكتبات المدينة الموقوفة، وكانت الظروف قد اختلفت إذ لم يكن في البعثة الأولى تيار كهربائي تعمل به آلة التصوير، أما اليوم فقد انبعث التيار في أحشائها، وسهل العمل فيها، ووسائل التبريد فيها بمراوح معلقة في سقف المكتبة، وبين البعثتين - من الزمن - ما يقرب من عشرين عامًا.

وسبق أن أشرنا إلى أن هذه المكتبة قد امتدت إليها الأيدي الطويلة، فجاء في سجلها، أمام المفقود منها، حرف الميم واليوم اكتشفت، وأنا أعمل في المكتبة، لونًا جديدًا من المخطوطات، وهو أني حيث كنت أطلب مجموعة مخطوطات آنس فيها نفاسة، بناءً على التصنيف القاصر في سجل المكتبة. فأجد منها غير مرة: أن غلاف المخطوطة قديم بالفعل، وما إن أفتح الغلاف إلا أجد كراسة، أو دفترًا حديثًا، كالذي يستعمله تلاميذ الابتدائية، وقد نقلت

---

(١٩) توفي عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. مآل مكتبات علماء المملكة، ص٦٩.

المخطوطة بخط متأخر جدًا على أوراق هذا الدفتر، ونزعت المخطوطة النفيسة، ووضع الدفتر الحديث بين الدفتين بدلاً منها(٢٠)!

والمكتبة لها سجلات خطية مصنفة على الفنون، توصيفها قاصر، وتحتوي على نحو خمسة آلاف مخطوطة، منها نحو ٦٠٠ مخطوطة بالتركية (العثمانية)، و ٤٠٠ مخطوطة بالفارسية، وبلغ الحصاد الذي جنيناه منها اختيارًا وتصويرًا ١٤٥ مخطوطة، هي زبدة هذه المكتبة.

وانتقلت البعثة بمعداتها إلى مكتبة المدينة المنورة، التي ألحقت بها مكتبتان: المحمودية، والحرم النبوي، في مبنى واحد على مقربة من مكتبة عارف حكمت. وكان في المحمودية حينئذ ٣٠٩٠ مخطوطة، اخترنا منها ٨٨ مخطوطة، صورناها، ومكتبة الحرم النبوي المحتوية على ٧٠٧ مخطوطات، انتقينا منها خمسًا، صورناها. وأذكر أن لهاتين المكتبتين سجلات خطية قاصرة، مصنفة على الفنون، وفيهما قدر من المخطوطات التركية والفارسية والأُردية.

ومن مكتبات المدينة الخاصة مكتبة محمد مظهر الفاروقي، التي أوقفت على طلبة العلم، وتضم نحو ٤٠٠ مخطوطة.. انتقينا منها أربعًا، وهي أيضًا لها سجلات خطية قاصرة التوصيف، مصنفة على الفنون.

---

(٢٠) انظر حديثًا لما تعرضت له مكتبة عارف حكمت، والمحمودية، التي سنذكرها بعد قليل، من سرقات، في إثنينية عبد المقصود خوجة في جدة، لتكريم د. صلاح الدين المنجد في ٤/ ٧/ ١٤٠٥هـ (٢٥/ ٣/ ١٩٨٥م)، دار الثقافة للطباعة، مكة، ١٤١٠هـ، ص٢٥.

ومن علماء المدينة وأدبائها الأفاضل السيد عبيد مدني، الذي رحب بالبعثة، وذكر أنه لديه مخطوطة نفيسة من ديوان ابن المعتز، الخليفة العباسي، جمع واختيار الصاحب بن عباد، فبادرنا بتصويرها، وفي الذهن أن نقدم صورة منها للباحث العراقي محمد بديع شريف، الذي هجر السياسة في بلده، وقر في القاهرة، وعلا إلى تخصصه، اللغة والأدب، وتركناه فيها وهو يعمل في تحقيق الديوان، وأشاد، عند عودتنا، بالنسخة، وأفاد منها عند إخراج الديوان محققًا.

وأذكر أنني لما أنجزت بطاقة الفهرسة للديوان، وكنت قد أعدت، في اليوم التالي، النسخة الأصل لصاحبها، وأعطيته نسخة بخطي من البطاقة، وكنت حذفت في البطاقة من اسمه كلمة (السيد) لظني أنها للتبجيل، تقابل (المحترم) مثلاً، فلما رأى ذلك اكفهر وجهه، وفهمت منه أن السيد تعني أنه من الأشراف، فاعتذرت له، وأعدتها مع الاسم في البطاقة.

ولم يفت البعثة أن تزور الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز، من كبار فقهاء عصره، فقد بصره وهو صغير، وكان آنذاك رئيسًا للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ورحب بالبعثة خير ترحيب(٢١).

وقبل أن نغادر المدينة المنورة متوجهين إلى مكة المكرمة، أذكر أن السيد حبيب المسؤول عن أوقاف المدينة المنورة ذكر

---

(٢١) توفي ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. مآل المكتبات علماء المملكة، ص٥١ - ٥٢.

لي أنهم بصدد نقل مخطوطات مكتبتي عارف حكمت في المدينة المنورة وغيرها إلى مكتبة حديثة يستعدون لبنائها. ورأيت عنده مجموعة من الرسوم على أوراق مقواة جمعت بين دفتين، وهي رسوم هندسية للمبنى المزمع إقامته، ولما رآني قلقًا لهذا الخبر، طمأنني أن المبنيين للمكتبتين المذكورتين، مقابل الحرم النبوي سيزالان في توسعة معمارية كبرى، ومشروع عظيم. وأن المبنى الجديد سيحتوي على وسائل حديثة، وأجهزة متقدمة لحفظ المخطوطات وصيانتها وترميمها. وكذلك على خزائن مناسبة، وجو ملائم من حيث الحرارة والرطوبة لحفظ أوراق المخطوطات وجلودها وزخرفتها من التلف والاندثار. وكنت قد سألته عن موقع المبنى المنتظر، فأجابني في مكان كذا في قلب حديقة هناك. فقلت له: رأيتها منذ أيام، ولفت نظري تنسيقها البديع، وزدت أني لاحظت لافتة في جنباتها كتب عليها عبارة: (هنا سقيفة بني ساعدة)، فقال: أحسنت، إن المبنى سيؤسس هناك.

وقد سمعت، بعد بضع سنين، أن المشروع قد أنجز وتم، وسميت مكتبة الملك عبدالعزيز العامة للمخطوطات، وبهذا اختفى مبنى مكتبة عارف حكمت الظريف والمكتبة الأخرى بجواره.

ورحلنا من المدينة المنورة بالسيارة إلى مكة، وهي رحلة طويلة، ولكن السيارة فارهة ومكيفة ومريحة. وفي وقت الظهيرة، والسيارة تنهب الفيافي نهبًا، طلبنا من السائق أن يعرج بنا إلى مكان نستريح فيه قليلا، ونشرب ماءً، ونتبلغ

بغداء، إذا تيسر ذلك، وبعد حين عرج بسيارته إلى خيمة كبيرة، مفتحة الجوانب، ومنفردة في هذا الفضاء الواسع، وجلسنا فيها، وتناولنا الغداء ساخنًا وشربنا ماءً قراحًا، ولما سألت عن هذه المنطقة التي نحن فيها، قال رجل المكان: نحن في بدر، حيث كانت الوقعة المعروفة بين المسلمين والمشركين، وأشار بيده إلى موقع غير بعيد، وتذكرنا ما أجمل لهذه الوقعة - منذ الصغر - من معانٍ وعبر وأكملنا المسيرة إلى حيث نقصد.

وفي صباح اليوم التالي لوصولنا استأنفنا العمل في مكتبة مكة المكرمة التابعة لوزارة الحج والأوقاف، واختارت البعثة مخطوطة واحدة، صورناها.

ثم انتقلنا إلى مكتبة الحرم المكي التابعة للرئاسة العامة للإشراف الديني بالمسجد الحرام، ومجموعتها كبيرة ومميزة بين مكتبات مكة. ويبلغ عدد مخطوطاتها ثلاثة آلاف، بعضها نالته أيدي مفهرسين جيدين، لهم معرفة ودراية بالتراث وعلومه، فوصفوها بمنهج طيب، وخرجت فهارسها تلك مطبوعة على الآلة الكاتبة، وبقي جزء كبير بكرًا لم تمسسه يد مفهرس، واختارت البعثة منها ٤٦ مخطوطة، صورناها، متجنبين ما صورته البعثة الأولى، حتى لا نكرر النسخ نفسها لدى المعهد، وأذكر أن المكتبة ليس فيها أجهزة تكييف، بل مراوح هوائية قائمة بجوارنا، وكان قد ابتدأ الحر يشتد، والعمل أصبح قاسيًا، فتحملناه بهمة عالية.

ومن المكتبات الشهيرة في مكة مكتبة الشيخ محمد حسن سرور الصبان(٢٢) الخاصة، التي تحتوي على نحو خمس مئة مخطوطة، غير مفهرسة، وقد أخذنا منها سبعًا صورناها.

وانتقلت البعثة بمعداتها وأدواتها إلى جدة. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي من وصولنا (١٧ ربيع الثاني ١٣٩٣هـ/ ٢٠ مايو ١٩٧٣م) سارعت إلى مكتبة الشيخ محمد بن حسين بن نصيف الخاصة، حيث منزله. وكان قد توفي منذ سنتين، على ما ذكرنا من أخبار البعثة الأولى (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، وفوجئت بالباب مغلقًا بالشمع الأحمر، ففجعت، وكانت صدمة للبعثة أي صدمة.

وفهمنا من المسؤولين في جامعة الملك عبدالعزيز أن الشيخ نصيف كان قد أوصى بوقف المكتبة على طلبة العلم، وأن تبقى في منزله هذا. وكانت الجامعة طامعة في أن تنتقل إليها المكتبة بمخطوطاتها ومطبوعاتها. ولكن الأمر ليس سهلاً، بإزاء شرط الواقف، ويحتاج إلى فتوى مبررة. وقد كان ذلك بعد وفاة الشيخ بنحو خمس سنين.

وأعلم أن الوقف أصلاً لا يجوز إلا للعقارات الثابتة. ولكن الفقهاء قديمًا، أجازوه للكتب لتعميم الفائدة على العلماء

---

(٢٢) من أدباء المملكة، وكبار رجال المال والأعمال، وصاحب خير عميم، توفي عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م. وقد أهدى أبناؤه المكتبة إلى جامعة أم القرى بمكة، سنة ١٣٩٧هـ، وصُنع لها فهرس، واتضح أنها حين أهديت تضم ٥١٧٦ كتابًا، معظمها من النوادر، من بينها ٢٠٣ مخطوطات أصلية، و١١ مخطوطة مصورة. مآل مكتبات علماء المملكة، ص٩٣ - ٩٤.

والباحثين وطلبة العلم. وقد حلت عقدة انتقال المكتبة، على أن الكتب - خاصة المخطوطات - تحتاج إلى عناية كبيرة من صيانة وترميم وتجليد وتصوير وفهرسة، وأجهزة حديثة للقيام بهذه المهمات، ومكان يتسع لذلك، والجامعة أنسب وأرحب، فكان ما كان من فتوى شرعية لنقل المكتبة.

وجدنا أن طلبة قسم المكتبات بالجامعة، بإشراف أساتذتهم، قد أكبوا على مخطوطات المكتبة، ووضعوا لكل منها بطاقة توصيفًا، وكان عددها ٢١٧ بطاقة، وهو عدد مخطوطات المكتبة، وصورنا هذه البطاقات، ولدى معهدنا نسخة ميكروفيلم منها.

وبالمناسبة، كان المعهد يحرص في بعثاته على تصوير ما يجده في المكتبات من سجلات المخطوطات، أو دفاتر لرصدها، أو بطاقات. وهي وثائق تحفظ عنوانات مقتنيات كل مكتبة آنذاك، وتزداد مصورات هذه الوثائق الخطية قيمة، حين نعلم أن فهرسة مخطوطات هذه المكتبات لم تكن قد شرع فيها، فضلاً عن عدم إنجازها بعد.

واستأنفنا العمل في مكتبة الجامعة، وكانت المخطوطات فيها في طور التكوين، وأن زخم الاهتمام باقتنائها، أصلية أو مصورة، كان في بدايته، فلم نجد في قسم المخطوطات سوى ١٣٣ مخطوطة، تخيرنا منها ثماني، صورناها.

وأذكر وأنا أقلب في بطاقات مخطوطات القسم بالجامعة، تمهيدًا لطلب بعضها، في ثنايا عملية الاختيار، أنني لاحظت

أن نحو أربعين بطاقة منها كتب عليها عبارة: من د.عبدالله عبدالرحيم عسيلان. وهو صديقي، وأستاذ جامعي، لا أعرف أنه معني بهذا. وبعد شهور من عودتنا إلى المعهد التقيت به، فذكرت له ما شاهدت في بعض بطاقات مخطوطات القسم بالجامعة في جدة، فضحك كثيرًا، وقص علي الحكاية التالية: وقد ابتدأت في القاهرة، وهو يقيم فيها ينجز مادة درجة الدكتوراة في الأدب لدى جامعة الأزهر، وكان يتجول مرة في حي شعبي قديم، فاستوقفه صانع أطعمة شعبية يصنعها أمام دكانه، ولمح في داخل الدكان، وهو مظلم قليلاً، أوراقًا وكتبًا، على هيئة كومة في الركن، فاستأذنه للدخول، وإذا بها مخطوطات وأوراق متناثرة، أو ممزقة، فسأله عنها، فقال له إذا كنت ترغب فيها خذها، فهي مجمع - في الدكان - للحشرات، واتفق عسيلان معه على أن يعطيه مبلغًا رمزيًا حتى يحل لنفسه أخذها. ونقلها إلى حيث يسكن في مباني الإعلام، بجوار مسرح البالون، وأخذ يفرزها إلى أن استخلص من هذه الكومة المهملة أربعين مخطوطة، قدمها إلى مكتبة جامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

الحصاد:

وهكذا قطعت البعثة المملكة شرقًا ووسطًا وغربًا، ودخلت ٢٢ مكتبة عامة وخاصة، صورت منها ٤٢٨ مخطوطة، تقع في نحو ٦٦ ألف ورقة، وهي خلاصة مخطوطات المملكة آنذاك.

وقد لمسنا أثناء الرحلة هذه بداية الاهتمام الزائد بالمخطوطات شراء وتصديرًا، والاهتمام برعايتها صيانة

وترميمًا وتصويرًا وفهرسة، ونحن حين نقارن بين محصول المملكة من المخطوطات في البعثة الأولى والثانية والثالثة وما هي عليه اليوم، نجد الفرق كبيرًا بينها. الأعداد تزداد تباعًا، وخدمتها تتعاظم تقدمًا.

ولاحظت البعثة أن المخطوطات في بعض المكتبات، مصفوفة فوق بعضها، والصحيح أن تكون قائمة على شكل رأسي في الرفوف، ذلك أمنع لها من الأرضة والرطوبة. وكنا وجدنا عوارًا ببعضها من الأرضة، على وجه الخصوص، بالإضافة إلى ضرورة أن تكون المخازن نظيفة ومعقمة بصورة دائمة. ولوحظ أيضًا تمزق بعض أغلفة المخطوطات وتلفها، الأمر الذي يقضي بضرورة الاهتمام بتجديد هذه الأغلفة وصيانتها، والحفاظ على زخارفها وتذهيبها وألوانها، أو إبدالها بأغلفة جديدة متقنة، يصنعها مجلد متخصص في تجليد المخطوطات، ولا يستخدم المقص في جميع الأحوال.

وتعرضت المخطوطات في المملكة إلى قصور شديد في الفهرسة، والتصنيف، خاصة (المجاميع)؛ لأن هذه الصنعة لم تكن - عمومًا - قد نمت واستقرت في البلاد. وهو حال تغير، ووضع تبدل الآن، فصور عن كثير من المكتبات العامة والخاصة أعداد من الفهارس المطبوعة، على المنهج الوصفي المقبول.

وتجدني أذيل هذا البحث بكشف كنت قد أنجزته عقب العودة من البعثة، وهو يلخص نشاطها، ويكشف عن حصادها طيلة مدتها، وأنشده هنا لسببين: الأول ليعظم فائدته

للقارئ، والثاني لأنه لم ينشر من قبل، وظل حبيس الأدراج مع مذكراتي عن الرحلة، ما يقرب من أربعين عامًا.

البعثة الثالثة:

ليست هي من لون بعثات المعهد المعروفة، التي من مقوماتها - على الأقل - خبير تراثي، ومصور لديه آلة التصوير، ومعدات التحميض، ومواده المختلفة، بل هي إيفاد خبير ليطلع على مخطوطات مكتبة بعينها، وينتقي منها وينجز قائمة بما انتقاه ويسلمها لعميد المكتبات، ليقوم بتزويدنا بها مصورة، يرسلها في مجموعات منجمة، وذلك على سبيل التبادل والتعاون.

وتعود دواعي هذه البعثة إلى أن معهد المخطوطات العربية كان قد انتقل من مقره إلى الكويت، لأسباب سياسية، ورأت الإدارة الجديدة ضرورة الحصول على مصورات منتقاة في وقت سريع، ليشرع في خدمة الباحثين وإفادتهم بالاطلاع عليها وتصوير ما يرغبون فيه، بالإضافة إلى أن جامعات المملكة ومراكزها أصبح لديها ما تعطيه للآخرين، مع توفر آلات التصوير المختلفة، وذلك على سبيل التبادل والتعاون، كما ذكرنا آنفًا.

ومن هذه البابة أرسل المعهد خبيرين: أحدهما إلى مكة المكرمة، متوجهًا بمهمته إلى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي. أما الخبير الموفد إلى الرياض، فهو كاتب صفحات هذا البحث، ومقدمه إلى دارة الملك عبدالعزيز.

وكانت المدة المقررة لي أربعة أسابيع، من ١١/ ٤/ ١٩٨٢ – ٩/ ٥/ ١٩٨٢م (١٤٠٣هـ)، أقضيها بين مخطوطات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ومصوراتها، وما تحوز عليه جامعة الملك سعود منها. وكنت أحمل عبئًا آخر هو الاتصال بمكتب التربية العربي لدول الخليج للتنسيق معه، وبحث سبل التعاون. وقد أثمر هذا الاتصال مسودة اتفاقية عقدت بين المعهد والمكتب على التعاون في المجال المشترك بينهما، مثل الكشف عن واقع المخطوطات العربية، وتحقيق النصوص، وتبادل المطبوعات.

وبدأت العمل في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وكانت الجامعة حديثة النشأة، وأن عمادة شؤون المكتبات المعنية بالمخطوطات قد مضى على تأسيسها نحو ثماني سنوات. إلا أنها باهتمامها الذي ذكرناه في موضع سابق، أنشأت قسمًا للمخطوطات، جهزته بوحدة تصوير متقدمة، وقاعات مختلفة للفهرسة والباحثين، وأمكنة مناسبة لحفظ المخطوطات والمصورات، والاهتمام بترميمها وتجليدها في معمل فني لديهم، ومكّن القسم من شراء المخطوطات، أو تصويرها، فكان رصيد مقتنياتهم، عند زيارتي، ٦٤١٣ مخطوطة أصلية، بعضها القليل مصور على ورق، و ٦٦١١ مخطوطة مصورة على ميكروفيلم، وهو محصول سرّ في هذا الزمن القصير. وكان الشراء أو التصوير من داخل المملكة وخارجها من البلاد العربية والإسلامية والأوروبية. فصوروا من تركيا (بالتبادل)، والمكتبة

الظاهرية بدمشق، والخزانة العامة بالرباط، ومجموعة مكتبة شستربتي في دبلن (أيرلندا) نحو ٢٥٠٠ مخطوطة، ومعهد المخطوطات العربية، وهو بالقاهرة، خصوصًا من بعثاته إلى إسبانيا (الإسكوريال وغيرها) عام ١٩٧١م (١٣٩١هـ)، والمملكة العربية السعودية عام ١٩٧٣م (١٣٩٣هـ) نحو ٤٢٨ مخطوطة، واليمن الجنوبي عام ١٩٧٦م (١٣٩٦هـ). وإن نسيت لا أنسى ما صورته الجامعة من دارة الملك عبدالعزيز بالرياض.

أما الفهرسة فهي تحتاج إلى متخصصين ذوي تجربة واسعة، مع العمل بصبر وأناة، فلم أجد منها ما هو صادر إلا فهرسًا واحدًا كان فهرسًا تجريبيًا، وصف فيه ٣٢١ مخطوطة من المصاحف والتجويد والقراءات. وحين وفدت إليهم وجدتهم يستدركون على هذا الجزء التجريبي لإعادة طباعته. وكانوا قد أنجزوا جزءًا في التفسير، أرسل للمطبعة تمهيدًا لنشره.

وكان القسم قبل ذلك قد أصدر فهرسًا لمخطوطات سمو الأمير عبدالله بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، الذي أهداها للقسم، وعدتها خمس وعشرون مخطوطة، سنة ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).

لذا أصبح لزامًا علي أن أنظر في أكثر من ١٣ ألف بطاقة لدى القسم، لتتم عملية الانتقاء وفق معايير وضعها المعهد عند انتقاله إلى الكويت، منها ضوابط علمية، وتجنب ما هو لدى المعهد في القاهرة مصورًا لعدم التكرار. وكنت أطلب الاطلاع على بعض المخطوطات، خاصة التي كانت بطاقاتها غير وافية أو شافية.

وقد نظمت ثلاث قوائم فيما اخترته للتصوير، يتضح فيها هوية المخطوطة، وهي عنوانها واسم مؤلفها، مع توصيف أساسي كاف لها، ورقمها في القسم، وخلصت إلى طلب ٢٥٩ مخطوطة، جاءت في ٢٥ صفحة، وقدمتها إلى عميد شؤون المكتبات بالجامعة، وهو الصديق الأعز الدكتور عبدالله عبدالرحيم عسيلان، الذي أبدى كل عون من أجل إنجاح مهمتي، وبدأت تصل المصورات، بعد عودتي، على مجموعات.

ولما انتقلت للعمل في جامعة الملك سعود بالرياض أيضًا، وجدت تطورًا كبيرًا في اقتنائها للمخطوطات، مقارنة بالوضع عند زيارتها إبان بعثة عام ١٩٧٣م (١٣٩٣هـ). فقسم المخطوطات مزود بمتطلباته كافة، وتجمع لدى القسم ٦٧٠٠ مخطوطة أصلية، و ١٧٠٠ مخطوطة مصورة على ورق، و٤ آلاف مخطوطة مصورة على ميكروفيلم. وبلغ مجموع ما لدى القسم نحو ١٢٤٠٠ مخطوطة.

وحين تتبعت مصادرها وجدتها من: مكتبات المدينة المنورة، ومكتبة الحرم المكي، ومكتبة الرياض العامة. ومن خارج المملكة من: وقفيات حلب، والخزانة الملكية بالرباط، والخزانة العامة فيها. ثم من المكتبة الوطنية في فينا (النمسا)، ومن مجموعة توبنجن (ألمانيا الغربية).

واهتم القسم بالبدء في إصدار الفهارس، فأصدر منها أربعة أجزاء تضم توصيف ١٢٨١ مخطوطة أصلية. ويعمل القسم - عند زيارتي - لإصدار الجزء الخامس في أصول الدين.

وقدمت أربع قوائم فيما انتقيته للتصوير، على نمط القوائم المقدمة إلى جامعة الإمام، وهي تتضمن ١٦٣ مخطوطة (في ١٤ صفحة) إلى عميد شؤون المكتبات بالجامعة الدكتور عبدالعزيز صالح الهلابي، ولا أنسى أن أسدي شكري للأستاذ صالح سليمان الحجي، المشرف على القسم، لما لقيته من عون وتسهيلات.

الخاتمة:

وهكذا وصلنا إلى نهاية المطاف، بعد أن ابتدأنا من جذور علاقة معهد المخطوطات العربية (جامعة الدول العربية) بالجامعات السعودية ومراكزها البحثية، ذات الصلة بالمخطوطات العربية والإسلامية.

ورأينا كيف أن الوشائج كانت حميمة بينهما، منذ البدء إلى يومنا هذا، المعهد يأخذ ويعطي، والمملكة تأخذ وتعطي، دون ضن من طرف على الآخر، ما دام الهدف الأعلى هو خدمة التراث العربي الإسلامي، المتمثل في مخطوطاته، بما يحفظ الكشف عنه، والتعريف به، وتصويره لتمكينه للعلماء وأساتذة الجامعات وسائر الباحثين والمراكز البحثية، في سبيل تحقيقه تحقيقًا منهجيًا، ومن ثم إخضاعه للدراسة المعمقة.

وعرفنا كيف استعان مركز البحث العلمي، وإحياء التراث الإسلامي، التابع لجامعة أم القرى بمكة، على تكوين مجموعته الأولى من المصورات بمعهد المخطوطات العربية، واستجاب المعهد للمركز في ما طلب.

وساهم المعهد في التعريف بمخطوطات المملكة في غير عمل نشره، منها فهرس كامل لمكتبة تحتوي على نحو خمس مئة عنوان، وعملان آخران نشرهما المعهد في مجلة الأكاديمية المحكمة، ذائعة الصيت، وواسعة الانتشار.

ومن جانب آخر حرص المعهد على نشر بحث عن تطور اهتمام المملكة بالمخطوطات العربية، أصلية ومصورة، شراءً وتبادلاً، وهو بحث قيم كشف عن نهضة عالية المستوى في اقتناء هذه المخطوطات، وزيادة أعدادها، ورعايتها بشتى الطرق - وإتاحتها للعلماء والباحثين. وكان ذلك في ندوة عقدها المعهد، ونشر بحوثها بعد انتهائها.

ثم تحدثنا بشيء من البسط عن ثلاث بعثات، قام بها المعهد إلى مكتبات المملكة عامة وخاصة، يصور منها ما يراه صالحًا لتحقيقه ودراسته، فالبعثة الأولى كانت مبكرة، ولكنها كانت قاصرة على الحجاز. أما الثانية فهي أم البعثات لأهميتها، ولأنها جابت المملكة شرقًا ووسطًا وغربًا، ولأنها شرفت بمقابلة جلالة الملك فيصل في الرياض وخرجت البعثة بحصيلة وافرة هي زبدة مقتنيات المملكة آنذاك. ولتميز هذه البعثة أثبت عنوان بحثي هذا مشتقًا منها.

أما البعثة الثالثة فهي من لون آخر، أقيمت على الكشف عما لدى المعهد والمملكة من مخطوطات، وتبادلها في حدود اختيارات كل منهما.

ويلاحظ القارئ أني حرصت في البحث على أن أظهر هذا الخيط الرفيع الذي أمت على طوله، وبين حالة المخطوطات

في المملكة كمًّا ونوعًا ورعايةً منذ الأول، ثم توالى التطور، وتبدل الحال متدرجًا، إلى أن بلغ المحصول الآن في الجامعات والمراكز مبلغًا يفوق الحد، وأن الرعاية ثَرَّة بلا ضفاف.

ولم أشأ أن أنقل البحث، فأعيد نشر ما صورته البعثات، ولا أن أفصل في نفائس اختياراتها، ولا نوادر انتقاءاتها، خشية الإملال، وخاصة أن الحديث قد طال، واكتفيت بالإشارة إلى مواضع نشر هذه القوائم، في حواشي هذا البحث وهوامشه؛ للرجوع إليها عند الحاجة.

كشف يبين نشاط بعثة معهد المخطوطات إلى المملكة العربية السعودية

من ١٠/ ٢/ ١٩٧٣م (٨/١/١٣٩٣هـ) إلى ٢٦/ ٥/ ١٩٧٣م (٢٤/٤/١٣٩٣هـ)

المنطقة	المكتبة	عدد المخطوطات المصورة	عدد الأوراق المصورة	ملاحظات
الرياض	١ - المكتبة العامة السعودية التابعة لدار الإفتاء بحي دخنة.	١٨	٣٢٣٧	
	٢ - مكتبة جامعة الرياض - قسم المخطوطات.	١٥	٢٨٠٨	
	٣ - مكتبة محمد بن عبدالرحمن العبيكان الخاصة.	١٤	٢٣٨٤	
	٤ - مكتبة الأمير عبدالله بن عبدالرحمن آل سعود الخاصة.	٧	١٣٣٧	
الأحساء	٥ - مكتبة الشيخ محمد بن عبدالله آل عبدالقادر الأنصاري الخاصة بالمبرز.	٢٧	٥٧٤٣	
القصيم	٦ - مكتبة بريدة العلمية العامة.	٤	٦٦٩	
	٧ - مكتبة الشيخ عبدالله الإبراهيم آل سليم الخاصة ببريدة.	٤	٥٦٠	
	٨ - مكتبة الشيخ صالح بن أحمد الخريصي الخاصة ببريدة.	٢	٦٣٢	
	٩ - مكتبة عنيزة الوطنية بالجامع الكبير.	١٠	١٧٧٠	
	١٠ - مكتبة الشيخ سليمان بن صالح بن حمد بن بسام الخاصة بعنيزة.	١٩	١٣٠٢	
	١١ - مكتبة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز الزامل الخاصة بعنيزة.	١	٨٠	
	١٢ - مكتبة الشيخ محمد الصالح العثيمين الخاصة بعنيزة.	١	١٥٠	

تابع:

المنطقة	المكتبة	عدد المخطوطات المصورة	عدد الأوراق المصورة	ملاحظات
	١٣ - المكتبة العلمية الصالحية بمسجد أم خمار بعنيزة.	١	٢٦٠	
المدينة المنورة	١٤ - مكتبة عارف حكمت التابعة لوزارة الحج والأوقاف.	١٤٥	٢٢٤٩٠	
	١٥ - مكتبة الشيخ السيد عبيد مدني الخاصة.	١	٨٢	
	١٦ - المكتبة المحمودية بمكتبة المدينة المنورة العامة التابعة لوزارة الحج والأوقاف.	٨٨	١٢٥٦٨	
	١٧ - مكتبة الحرم النبوي بمكتبة المدينة المنورة العامة التابعة لوزارة الحج والأوقاف.	٥	٦٦٥	
	١٨ - مكتبة محمد مظهر الفاروقي الخاصة.	٤	٧١٦	
مكة المكرمة	١٩ - مكتبة مكة المكرمة التابعة لوزارة الحج والأوقاف.	١	٢٩٣	
	٢٠ - مكتبة الحرم المكي التابعة للرئاسة العامة للإشراف الديني بالمسجد الحرام.	٤٦	٥٤١٢	
	٢١ - مكتبة الشيخ محمد سرور الصبان الخاصة.	٧	١٥١٤	
جدة	٢٢ - مكتبة جامعة الملك عبدالعزيز المركزية.	٨	٧٩٨	
٦ مناطق	٢٢ - مكتبة عامة وخاصة.	٤٢٨	٦٥٤٧٠	٩٥ رولاً

ملاحظة: وفهرست البعثة ثلاث مخطوطات من المدينة المنورة ومكة المكرمة ولم تصورها.